التوبة في الكتاب والسنة

المحاضرة السادسة والثلاثون
لفضيلة الشيخ : سليمان المدني

قرأنا في العددالسابق عن التوبة وتعرض فضيلة الشيخ الى تعريفات التوبة و العلم بالمهلكات وما يقرب الانسان لربه وما يبعده عنه والى الندم وانه نتيجة التوبة باعتبارها نتيجة للمعرفة وسبب النزوع وعدم المعاودة وثمرة الندم الارادة ونتابع في هذا العدد ما جاء في المحاضرة.

هذه الذنوب كيف تحصل للانسان وما هي انواعها قسموا الذنوب تقسيمات مختلفة قسموها بالنسبة الى صفات الانسان فقالوا ان الذنوب تكون الربوبية، وتكون ذنوب شيطانية وتكون ذنوب بهيمية وتكون ذنوب سبعية في الحقيقة هذا التقسيم تقسيم فلسفي اكثر منه واقعي والمقصود بهذا التقسيم ان الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة عقول مجردة لا تعتريها شيء من الاخلاق ولذلك فهي لا تعصى وخلق الشياطين والابالسة من مركب واحد هو مركب النار فصارت بطبيعتها نزاعة الى المعصية اذيه عن الطاعة وخلق البهائم لا تدرك في الحياة الا غرائزها وما يقيم حياتها من المأكل والمشرب وما يحفظ تناسلها من جنس وخلق السباع ضارية مؤذية قتاله وخلق الانسان وجعل فيه كل هذه التركيبات اضافة الى ذلك انه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه فصار ايضا سبب ذلك له صفات ربانية او صفات ربوبية فمن الصفات الربوبية يتولد حب العز وحب الزعامة وحب القدرة وحب المدح وحب الجاه وحب السيطرة حتى يصل الى ما وصل اليه فرعون فيقول : (انا ربكم الاعلى) ومن الصفات الشيطانية من وجود عنصر النار يتولد عند الانسان الحقد والحسد والبغضاء والحيلة وغير ذلك من الامور التى يستعملها الشيطان ومن كونه احد الحيوانات وفيه مركب البهيمية تكون عنده غرائز الغضب والثوران والهيجان والتهجم على الانفس والاموال وغير ذلك كما انه من الغرائز البهيمية يحصل الزنا واللواط او امثاله والسرقات وغير ذلك من هذه فهذا التقسيم لهذه الذنوب بناء على هذه الصفات ولكن في مقام العمل لا يوجد مثلاً جدوى مهمة كبيرة على هذا التقسيم فإن الذنوب اين كان سببها ومصدرها انما هو سبب تاثيرها من القرب من الله وعلاجها انما هو التوبة نعم بعض يذهب الى معنى الرياضة ومعنى الاعتزال ومعنى التصوف يستعمل مثل هذا الاسلوب بدعوة المجاهرة والحقيقة ان لفظ المجاهدة في الشريعة انما يعني جهاد النفس وكسر شوكتها في اي طريق تريد ان تخالفُ الله فيه ولو كانت التوبة مثلاً ومعرفة الذنوب تتوقف على معرفة هذه الفلسفة وهذا التقسيم لكان حصول التوبة من الانسان العادى امر عسير وعندئذ لا تكمل رحمة الله الذى فتح باب الرحمة لكل عباده كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم هناك ايضا تقسيم ثالث الى الذنوب بالنسبة الى من تكون بين المذنب وبينه فقسموها الى ذنوب بين العبد وربه وذنوب بين العبد وسائر خلق الله وبذلك تكون قسمين ومن الذنوب التى تكون بين العبد وربه ترك الصلاة والصيام .. الخ .

فمن افترض الله عليه او حرم عليه فخالف لما حرم او الى ترك ما اوجب ومن الذنوب التى بها تعلق العبادة كثيرة منها عدم اخراج الحقوق الشرعية لمستحقيها كاكل الزكاة او الخمس مثلاً والغصب والسرقة والخيانة واللواط والزنا وامثال ذلك من هذه الامور كلها تكون وكذلك اذية المؤمنين او المسلمين كغيبتهم او ضربهم او قطع ارجلهم وايديهم او قتلهم واهانتهم الى غير ذلك كل هذه الذنوب تكون متعلقة بين المذنب وبين عباد الله ولا شك ان هذا القسم واقعي ومعرفته لها اثر كبير في التوبة فان التوبة مثلا من الذنب الذي يختص بين العبد وربه يكفي فيه الندم وتلافي ما فات ان كان يمكنه قضاءه كقضاء الصلاة او الصوم او الذهاب الى الحج والذنب الذى له تعلق بعباد الله حتى تحصل منه التوبة الحقيقية في مقدوره عليه ان يتلافاه بان يستبرء ذمة من سبب له ذلك الضرر او سبب له ذلك الظلم سبب ذنبه مثلاً فانه مثلاً اذا لم يستبرء المظلوم لا يحصل له التوبة الحقيقية اولا يحصل له النزوع الحقيقي لله

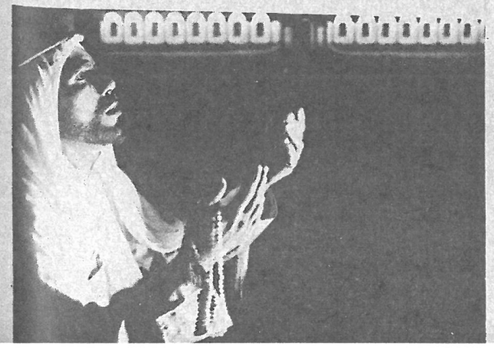

باعتبار ان هذا الذنب . له طرف يتعلق بطرف ثالث هو أحد خلق الله سبحانه وتعالى فهذا التقسيم إشكال في انه تقسيم واقعي وله تاثير كبير في مجرى التوبة هناك تقسيم ثالث بموجب حديث عن الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه قال : (الذنوب ثلاثة ذنب مغفور ، وذنب غير متروك ، وذنب نحن لصاحبه كما هو لنفسه نرجوا له المغفرة ونخشى عليه العذاب فقيل له : يابن رسول الله فما هو الذنب المغفور ؟ وما هو الذنب الغير متروك ؟ وما هو الذنب الذي ترجون لصاحبه المغفرة وتخشون عليه العذاب ؟ قال :

أما الذنب المغفور فذنب يكون بينه وبين الله وقد عاقبه الله عليه في الدنيا فالله أكرم منا ان يعاقب عبده مرتين ، وأما الذنب الغير متروك فهو ظلامة لعباد الله فإنه سبحانه وتعالى اذا جاء يوم القيامة وبرز لخلقه اقسم على نفسه وقال : وعزتي وجلالي لا يفوتني ظلم ظالم فيقتص من الظالم من المظلوم ومن القرناء الى العجماء حتى الكف بالكف

والمسحة بالكف والنطمة وغير ذلك وبعد ذلك يبعثهم للحساب وأما الذنب الذي نرجو لصاحبه المغفرة ونخشى عليه العذاب فهو ذنب يكون بينه وبين الله وقدتاب منه عليه وندم عليه فإن لله ان يعفو عنه ويرحمه وله ان يأخذ بحقه ويعذبه .

طبعاً هذا التقسيم الذي ورد في الرواية مطابق للتقسيم الأول وان كان التقسيم الأول يتكلم في مقام التوبة يعني له تعلق بخصوص التوبة وهذا له تعلق بتقسيم الذنوب جميعاً الذنوب من جهة ثالثة تنقسم الى كبيرة وصغيرة ، الكبائر والصغائر وللعلماء خلاف كبير في ذلك وبعض من العلماء نفى وجود الصغيرة واعتبر كل ذنب يقدم عليه الإنسان بتعمد فهو كبير ولا شك ان هذا القول تنفيه الآية الكريمة (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) فلو لم تكن الذنوب كبيرة وصغيرة لما صار تخصيص حكم الصغيرة وانما نهى عنه فيه الكبير ومنه الصغير ولكن كيف نعرف ما هو الذنب الكبير وما هو الذنب الصغير . طبعاً منهم من يقول ان الكبائر سبع ومنهم من يقول سبعين ومنهم من من يوصلها إلى عدد جداً كبير والحقيقة انه ليس لنا مجال في معرفة عدد الكبائر وذلك لكي نعرف عدد الكبائر بالتاكيد وعلى نحو الضبط والتفصيل لابد ان نحتاج إلى تصريح من صاحب الشرع بان يقول عنيت بالكبيرة مثلاً سبعاً او سبعين او مئة وهي كذا او كذا وأما ان تردفي روايات متفرقة تارة سبع وتارة عشر وتارة ثلاث وتارة اكثر وتارة اقل وفي هذه الرواية تذكر مجموعة من الذنوب وفي رواية اخرى تذكر مجموعة من الذنوب الأخرى فهذا لا يجعلنا أن نتاكد على نحو التاكيد من عدد الكبائر بالضبط . لأن العدد لا يمنع غيره مثلاً إذ قال النبي (ص) او قال احد الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين بان الكبائر سبع وذكر مجموعة ثم قال في محل آخر او أمام آخر انها ثلاث وذكر مجموعة لا تنافي بين هذا العدد يعني هذا العدد لا ينافي ذلك العدد بل يمكنه جمعه معه وعند ئذ جميع العددين لا يكون حاصراً عن الزيادة قد يحتمل ان توجد زيادة اذن معرفة الذنوب الكبائر على نحو الدقة والتفصيل غير ممكن ما دام لم يرد بيان مفصل بتحديدها على نحو التفصيل من صاحب الشرع الأقدس ولكن نحن نعرف اكبر الكبائر ولا نعرف اصغر الصغائر واكبر الكبائر كما وردت به الروايات المتضافرة بين كافة المسلمين سبع الكفر بالله وتعالى ، وقتل النفس ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، الزنا ، اللواط ، والتعرب بعد الهجرة طبعاً باعتبار هذه الرواية وكونها رواية مستفيضة بين كافة المسلمين فقول ان ما ورد فيها أكبر الكبائر لا بمعنى ان مالم يذكر فيها ليس من الكبائر . ولكن يمكن ان يوجد لنا طريق به نعرف معنى الكبيرة ومعنى الصغيرة فاذا عرفنا معنى الكبيرة ومعنى الصغيرة استطعنا ان نميز الذنوب بين ما يكون كبيراً وبين ما يكون صغيراً طبعاً لا إشكال ان كل ما توعد الله عليه النار فهو كبيراً ولا اشكال في إن كل ما ورد النهي عنه في القرآن بخصوصه فهو كبير . ولكن ليس كل الكبائر مذكورة في القرآن ولا كل الكبائر مما ورد فيها ذكر يتوعد بالنار فاذن ما هو المقصود بالكبائر ؟ الواقع ان الهدف الرئيسي من بعثة الأنبياء وانزال الكتب وتشريع الشرائع بل الهدف الرئيسي والغرض الرئيسي من خلق السموات والأرض . وخلق الجن والإنس انما هو الحياة الأخرة «وما خلقتُ الجن والانس الا ليعبدون» ولكن الحياة الأخرى لا تحصل فيها السعادة ولا يحصل فيها القرب إلا عن طريق ان يعرف العبد

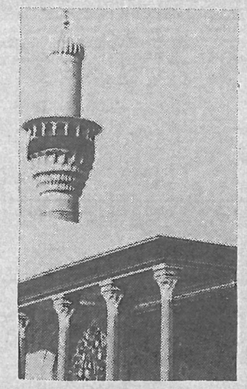

ربه بالربوبية ويعرف نفسه بالعبودية فتوقفت الحياة الأخرى على العلم فاحتاج الأمر الى ان يوجد هذا الإنسان في حياة قبل الحياة الأخرى فوجدت لتكون طريقاً ومعبراً ممهداً للحياة الأخرى ولذلك ورد في الحديث (الدنيا مزرعة الآخرة) فصارت الحياة . حياة الأخرى لا يمكن تحقيقها إلا بالحياة الدنيا والحياة الدنيا تتوقف على شيئين الأموال لأنه اذا لم تكن الأبدان سليمة لا يمكن ان تؤدي العبادات المطلوبة منها ولا ان تصل إلى المعرفة الحقيقية المرادة لها فلا بد ان تكون الأبدان سليمة ولا تكون الأبدان سليمة إلا بتوفر اسبابا السلامة لها من المأكل والمشرب والمسكن وغير ذلك مما يدفعه بها عن سائر الآفات المضرة . ويقيمها قادرة على الحركة وهذا لا يكون إلا بالمال فصار للمال أيضاً دخلٌ وعلاقة بالحياة الأخرى فإذن هذه الذنوب اذا أردنا ان ننظر إليها نجد فيها ما يناقض الهدف الرئيسي او الهدف المقصود أصلاً يعني منها ما يناقض الهدف الاخروي رئيساً كالكفر بالله والشرك والكفر بالأنبياء وعدم التصديق بالكتب والشرائع وكذلك إيجاد البدع وايجاد الأديان الفاسدة والباطلة والمذاهب الفاسدة والأفكار المنحرفة والدعوة إليها كل ذلك يناقض الهدف الأساسي من خلقه الإنسان رئيساً فلا شك ان كل ما يكون من هذا القبيل يكون من أكبر الكبائر ولذلك صار الكفر بالله أكبر الكبائر وتارة هذه الذنوب لا تضاد الهدف الرئيسي مباشرة وانما تضاد الهدف الرئيسي بطريق آخر كما إذا كان الذنب يتعلق بارواح المخلوقات بارواح عباد الله وتعطيل أجسامهم كقتل الإنسان وقطع اطرافه كبديه ورجليه أو ضربه أو غير ذلك مما له تاثير على سلامة بدنه فهذا لا يناقض مثلاً الايمان بالله رئساً ولا يناقض ، اليوم الآخر ولكن بإعتباره أنه يعتدي على مالايمكن التوصل بالطاعة الا به كان كبيراً وكان عظيماً لاعتباره مانعاً وحاجباً من القرب إلى الله بطريق غير مباشر واما الأموال فلا شك انها تاتي في المرتبة الثالثة بناء على هذا التفصيل ياتي في المرتبة الثالثة ومن أجل ذلك لا يكون اكل شيء بالغصب كقتل مؤمن مثلاً اغتصاب ملك المؤمن يعادل قتل المؤمن في الكبيرة ولكن لاشك ان قتل النفس أكبر من اغتصاب مال الإنسان او منعه رزقه او غير ذلك بالاضافة الى ان هذه الأموال يمكن أن تتلاف اما بالتغريم او بالأخذ او لاسترجاع او غير ذلك بخلاف الأشياء التي تقع على جسم الانسان أو على روحه لايمكن تلافيها فإنه بعد إزهاق روح باي شيء يتلاف او بعد تعطيل جارحه من جوارحه باي سيء يتلاف وعلى الرغم من ذلك فلا بد أن نقول ان في هذا التفصيل الذي قلناه نقص وهذا النقص مثلاً نضرب مثلاً بالربا إذا جئنا الى الربا لوكنا نسير بالقياس مقتضى القياس أن يكون شرب الخمر اشد من الربا مقتضى القياس ان الزنا اشد من الربا مقتضى القياس مثلاً سائر الذنوب اشد من الربا قتل النفس أشد من الربا لكن بموجب نصوص اهل الشريعة الربا أشد من الجميع يقول سبحانه وتعالى : «يا ايها الذين آمنوا ذروا ما بقي من الربا ، الى ان يقول وان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله» فإذن ما جعل سبحانه وتعالى مرتكب كبيرة من الكبائر في مقام محاربة إلا المرابي ولذلك ورد في الرواية عن النبي (ص) (ان كل درهم واحد من الربا أشد عند الله تعالى من سبعين زنية بذات محرم بين الركن والمقام أو عند الكعبة في رواية أخرى . إن هذا الذنب في الحقيقة يتعلق بالأموال لايتعلق بالأبدان الذي قلنا نها في المقام الأول في قضية الحفظ بين الشرائع والأديان فإذن لا يمكن للإنسان بعقله ان يصيب أسرار الشرع في الحقيقة واسبابه وعلل تشريعاته وتنظيماته أمر بعيد على أي حال فكل ما كان له غرض او كلما كان هذا الذنب له تعلق بالحجب عن اليوم الآخر يكون كبير . نعم هناك أمور لايكاد البشر بسبب ما ضطروا عليه من الحيوانية ينفكون عنها كان يتكلم فيكذب كذبة صغيرة او يعد انسان بالمجيء ثم لا ياتي او غير ذلك أو يغتاظ على من يضربه من دون ان يستوجب هذا الأبن ضرباً او امثال ذلك او سوء خُلق بينه وبين اخيه في امر من الأمور هذه .